

الأداء الثيوصوفي في الشعر الجزائري المعاصر

دراسة تأويلية

*Theosophical performance in contemporary Algerian poetry
hermeneutical study*

نجيم ساته *

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الارسال
26.06.2023	25.06.2023	21.06.2023

الملخص:

يروم البحث تطرح مفهوم الثيوصوفيا، واستثمار مخاضها الدلالي والجمالي في المتون الشعرية الجزائرية المعاصرة التي يُمثلها كل من الشاعر: محمد علي سعيد – أحمد عبد الكريم – عبد الحميد شكيل، كما يطرح البحث عدّة إشكالات نوجز منها: هل احتفت التجربة الثيوصوفية في الشعر الجزائري المعاصر بالمخاض الفني / الجمالي؟، تُرى ما العلاقة بين الثيوصوفيا والتّصوف؟، فهذه الإشكالات سيّتم تطرحها وفق المنهج التأويلي باعتباره أنسب منهجاً للولوج إلى عالم التّصوص الشعريّة الثيوصوفية الجزائرية وخاصة في الفترة المعاصرة.

وقد توصلَ البحث إلى جملة نتائج نذكر منها: شكلت التجربة الثيوصوفية في الشعر الجزائري المعاصر تياراً يتجاوز الشّطح والأحلام فأقل ما يمكن القول عنه أنّه كائن غيبي اتخذ من اللّانهاية معراجاً، ومن الشّطح الصوفي فتاً، ومن الكتابة الشعرية سراباً فحقّق تناسبا طرديا مع إستراتيجية التّأويل القائمة على سياسة العزلة اللّغوية والدّلالية.

الكلمات المفتاحية: الثيوصوفيا؛ التصوف؛ الشعر الجزائري؛ التّأويل؛ المخاض؛ الجماليات.

Abstract:

The research aims to discuss the concept of Theosophy, and to invest its semantic and aesthetic pains in the contemporary Algerian poetic texts represented by the poet: Muhammad Ali Said - Ahmed Abdel Karim - Abdel Hamid Shakil, the research also raises several problems, including: Did the Theosophical experience in contemporary Algerian poetry celebrate the artistic/aesthetic labor? These problems will be raised according to the hermeneutic approach as it is the most appropriate method to access the world of Algerian Theosophical poetic texts, especially in the contemporary period.

Keywords: Theosophy; mysticism; Algerian poetry; Interpretation labor; aesthetics.

مقدمة:

يُتيح التعبير الثيوصوفي إمكانات فتح النص على ما لا نهاية من العمليات القرائية والفهمية باعتبارها أحد مخاضات التأويل الذي يرتبط قبل كل شيء بفهم المعاني الدفينة للنص وإحداث توتر وخلخلة في بؤرها المعلمية فتزداد غورا وانسيابا وانفلاتا، مما يؤدي إلى لانهائية القراءة/ لا نهائية الدلالة/لانهائية السراب/تعدد مسافات الاحتمال، أو ما نصلح عليه باستحالة العيش خارج المعنى الحبرائي / استحالة القبض على المعنى كونه نتاج العلاقة الباروكية بين النص الشعري الثيوصوفي والقارئ.

وعليه تتعلق إستراتيجية تأويل النصوص الشعرية الثيوصوفية بتقنية الكشف الإرادي المموه أي أنّ النصّ الثيوصوفي يكشف عن ذاته في لحظة لا تُورخها القراءة السطحية / الأولية ثمّ ما يلبث أن يتوارى بالحجاب، نظير ذلك نجد النصّ الشعري الثيوصوفي منوطا بالقراءة العميقة التي تزداد غورا في بنيات النصّ كلّما اعتقد القارئ أنّ المعاني قد كشفت عن ذاتها وطففت على سطح النصّ (عدم التشبع من معين النص).

فالأمر إذا متعلق بهمّ الرؤيا الثيوصوفية المتوخية وصل الحلقة الثلاثية للذات والموضوع والمصدر، وهذا لا يتأتى في الفكر الثيوصوفي إلا إذا انطلقنا من إستراتيجية تأويلية تتوخى الشوارد والهوامش مركز ثقل، فيغذو الجزء أكمل من الكلّ، والفرد أقوى من الجماعة.

يمكن القول إذا بلا مواربة أن إستراتيجية التأويل وجدت مَطْمَحَهَا التقدي في الخطاب الشعري الثيوصوفي وخاصة الجزائري منه، الذي ألقى يرتاح إلى إمكانات الاحتمال / الشكّ / التعدد / تباين الظاهر والباطن...، فهذه المدارات الدينامية جعلت من الشعر الثيوصوفي الجزائري المعاصر نصا مُرمزا

/ مُشفرا/ مُوسلبا، فلا ضير إذا أن نضع إشارة مساواة بين الشعر الثيوصوفي وإستراتيجية التأويل باعتبارها ما لم يقله الناطق الرسمي باسم النصّ، أو ما لم يُفرج عنه من المعاني حتى حين.

بناء على ما تقدّم يروم البحث تطرح مفهوم التجربة الثيوصوفية واستثمار مخاضها الدلالي والفنيّ / الجمالي في المتون الشعرية الجزائرية المعاصرة التي يُمثلها كل من الشاعر: محمد علي سعيد – أحمد عبد الكريم – عبد الحميد شكيل.

وقد اعتمد البحث على المنهج التأويلي الذي فرض نفسه باعتباره أنسب منهجا للولوج إلى عالم النصوص الشعرية الثيوصوفية / المستعصية وخاصة الجزائرية المتوخاة للتكثيف الدلالي / الاقتصاد اللغوي/ تعدّد مسافات الاحتمال إذ بدت في الفترة المعاصرة سرايا كلّما اقتربت منه ازداد منك بعدا، وهذا ما استلزم تدخل التأويل كونه خير مُعين لاستكناه غور المعاني الدفينة، ذلك أنّ الشاعر الثيوصوفي غير جوادٍ بما يكفي لجعل معانيه تطفو على السطح أو يستمتع بها كلّ قارئ؟. كما طرح البحث عدّة إشكالات نذكر منها: هل احتفت التجربة الثيوصوفية في الشعر الجزائري المعاصر بالمخاض الفنيّ / الجمالي؟، هل تمكّنت إستراتيجية التأويل من استكناه غور المنجز الثيوصوفي الجزائري المعاصر؟. هل لقيت النصوص الشعرية الثيوصوفية الجزائرية المعاصرة التّحصيل التّقدي الجاد المتمخض عن قراءة نقدية واعية؟، ما الذي أضافته الثيوصوفيا كرؤيا عرفانية إلى التجربة الشعرية الجزائرية المعاصرة؟.

2. ماهية الثيوصوفيا:

قبل تطرح الثيوصوفيا كموضوع بحث يجدر بنا تحديد الحقل / المجال الذي ينتمي إليه هذا المصطلح ويشغل ضمنه، ومن ثمّ ومعرفة ما يتوخاه من كينونة النص الشعري.

العالمية الثيوصوفيا على أنّها " نظام تفكير فلسفي وديني غير إسلامي"³.

بعيدا عن هذه الرعونة الصوفية المكرسة للإقصاء العرفاني تتجلى نضاعة الثيوصوفيا بعدها " نظاما من الفكر أساسه الاستنارة الباطنية، ويستمد خبرته منها، ويشير لفظ الثيوصوفيا إلى معرفة سرية"⁴.

حينما نتأمل مثل هذا المفهوم، ومفاهيم أخرى تتراءى لنا تلك العلاقة الوطيدة بين التصوف والثيوصوفيا المنوط " بمعرفة الإله عن طريق الكشف الصوفي والتأمل الفلسفي"⁵.

تمخض الثيوصوفية إذاً عن التصوف باعتباره مادة أولية لها، علاوة على نوع خاص من الفلسفة يمكن الاصطلاح عليها بالفلسفة الباطنية القائمة على روابط وصلات شفافة / مباشرة تثغيب لحظات المناجاة والوجد والتضرع حين "الاتصال المباشر بالكائن الإلهي"⁶؛ وإذا توخينا الكشف عن حيثيات هذه العلاقة المقدسة فسنجد مصدرها المعرفة الغيبية التي يُصطلح عليها بالحدس.

وعليه تتحدّد الثيوصوفيا بوصفها أسمى مقامات التصوف على حدّ قول الحلاج "ما في الجبة إلا الله"⁷.

وعودا على بدء يصعب تصنيف الثيوصوفيا ضمن نظرية معينة أو مذهب ما كونها متعلقة بأسرار الغيب، المعرفة الإلهية المباشرة، الحدس...، كذلك لا يخفى علينا التجاذبات النوعية التي تتوخى تفريد الثيوصوفيا وفق تطلعات كلّ دارس، ومع ذلك يُمكن اعتبار الثيوصوفيا مجموعة من المذاهب المتواشجة " لها سمة مشتركة، قوامها تقديم نفسها على أنّها معرفة الأمور الإلهية القائمة على تعميق الحياة الداخلية، والمانحة القوى التي تقتقر إليها الإرادة البشرية عموماً"⁸.

وحتى يتسنى لنا الوقوف على ذلك حري بنا البحث عن أجوبة الأسئلة الآتية: هل الثيوصوفيا مذهب أو نظرية، أو رؤية على غير مثال للإنسان والكون باعتبارهما خطاب الكينونة الأزلي "إني جاعل في الأرض خليفة" الآية -30- سورة البقرة. كذلك يُلحّ علينا سؤال لا مناص من الإجابة عنه: هل الثيوصوفيا وعي مثالي بالحقيقة العرفانية للتصوف؟.

كثيرا ما تنضح المفاهيم وتستبين المعالم انطلاقا من تلافيف المعاجم اللغوية بعدها الخطوة الأولى التي لا بدّ منها، خاصة إذا تواشج المفهوم اللغوي مع المفهوم الاصطلاحي وكانت بينهما صلحة رحم قوية، وليس أدلّ على ذلك من مصطلح الثيوصوفيا حيث تُحيل نبط دلالاته على " الحكمة الإلهية *Divine Wisdom*، أو حكم الآلهة، أو المعرفة الإلهية، أو العلم الإلهي"¹.

رغم تعدد المفاهيم الصلاحية للثيوصوفيا - كما سنرى - إلا أنّها لم تُحدّ عن المصب اللغوي، ذلك أنّ الثيوصوفيا من المصطلحات التي تشرق معانيها من ذاتها وفي ذاتها، فهي ترفض الحصر والتقولب كونها نتاج المطلق، يقول "وليام جرج *William Judge* إنّ قوة الثيوصوفيا تكمن في الواقع أنها غنية عن التعريف فهي (حكممة الآلهة *Wisdom of the gods* أو حكممة الطبيعة *Wisdom of the nature*)"².

وعليه تغدو الثيوصوفيا مفهوما جامعا مانعا مشفوعا باللوغوس المثالي للمطلق، ولعلّ هذه الرؤية العرفانية الخالصة هي التي جعلت الثيوصوفيا البديل الموضوعي لفكرة وحدة الأديان كونها ترفض الأيديولوجيا، وتمتقت المرجعية الدينية، وتستقل عن المنطق الفلسفي؛ لذا فليس من الحكمة الإلهية أن تُعرّف الموسوعة العربية

الفارة إلى وله الحقيقة العرفانية في ظل " غياب
التوازن وحساسة رقابة العقل" ¹²:

مِنْ عُيُونِ السُّؤَالِ...
لَمْ يَكُنْ فِي الْكَرَاسِي
سِوَى خَصَلَةِ الشَّمْسِ
تَرْفَعُ أَحْدَاقَهَا وَتُعْرِِي
كُؤُوسَ الْمَدَامِ
مِنْ النَّشْوَةِ الْهَارِبَةِ
(...)

عِنْدَ مَطْلَعِ هَذَا الصَّبَاحِ
مَلُؤُهُ الْحَيَرَةُ
وَعِبَادُ

يُعْدُونَ يَقْطَعُهُمْ
أَوْ تَسِيرُ خُطَاهُمْ

عَلَى أَوَّلِ الْهَمَسَاتِ الطَّنِيئَةِ

تَسْطُعُ عَلَى النَّصِ نَوْرَانِيَّةَ الشَّمْسِ الحاملة لدلالة
اليقظة المتمخضة عن نشوة متماهية مع وجود
عرفاني يرتاح إلى الظن و" الحيرة كما يرتاح
الجاهلون إلى اليقين" ¹³.

ترتبط نشوة السكر بحقل ميغناطيسي يجذب
الذات الإنسانية نحو الذات الإلهية فتتسبب إليها "
كنسبة النقطة إلى محيط الدائرة، فهي مركز تدور
حوله، وتتكى عليه كل العلوم والمعارف" ¹⁴:

تَتَأَرْجَحُ يَا وَطَنِي خَلْفَ الْأَصْدَاءِ الْمَبْكُومَةِ
وَأَرَاكَ تَوَسَّعَ دَائِرَةَ الْأَشْيَاءِ وَتَنْقُضُنِي
فِي الْعَالَمِ فِي الدُّنْيَا
إِنَّ الْإِنْسَانَ رَسَالَتُهُ
تَتَوَحَّدُ بِالْأَفْرَاحِ الْخَمْرِيَّةِ

يَخْرُجُ الشاعرُ محمد علي سعيد من حروف الصمت
حاملًا رسالة ما بعد الرسائل تعاليمها من حنايا
خمرية تتوحد فيها الذات والوطن لتعبر عن لذة

أيضا لا تنفك الشيوصوفيا — كما رأينا — عن كونها
" كلّ نظرية تُخلط الفلسفة بالتصوف، وترى أنّ
معرفة الأمر الإلهي والأشياء المقدسة تُستمد من
الحياة الروحية" ⁹.

لقد صدق وليام جرج حيناً أكد على أنّ
الشيوصوفيا غنية عن التعريف، فأبي محاولة
لتعريفها ستؤدي بها إلى نوع من التداخل المعرفي
مع باقي المعارف الروحانية الأخرى (التصوف،
الحدس، الدين، الأسطورة، الطقوس،
الشعائر...)، ويتضح ذلك من خلال المفهوم الذي
صاغته الموسوعة العربية الميسرة للشيوصوفيا حيث
حصرتها في بوتقة دينية بحث، ناهيك عن وصفها
بمفردات فضفاضة وغير علمية من قبيل " هي كلّ
نظرية تخلط الفلسفة بالتصوف".

3. الجماليات الفنية والدلالية لمخاض التجربة
الشيوصوفية في الشعر الجزائري المعاصر:

أشرق التيار الشيوصوفي بغية توفير الغذاء
المثالي للروح وأحسن غذاء راق الشعراء
الشيوصوفيين هو تطعيم النص الشعري بـ "
مصطلحات مثل الخمرة الإلهية والتجلي، والسكر
الصوفي ووحدة الشهود أو الوجود وحميا النشوة
والخلان، والهوى العذري ... " ¹⁰.

1.3 الخمرة:

حري بنا القول أنّ لغة العين لا تُجدي نفعا في
مراودة رمز الخمرة، فهو يتطلّب لغةً شيوصوفيةً "
تقتلعنا من وحل الأشياء العادية وتقذف بنا فيها
وراءها وتعلمنا أنّ المرئي وجه اللامرئي، وأنّ
الملموس تفتح لغير الملموس، فما نراه ونحسه
ليس إلا عتبة لما لا نراه، ولا نحسه وتجتاز بنا هذه
العتبة حيث نزول الفواصل، ويصبح الباطن
والظاهر واحداً" ¹¹.

تثير التجربة الشيوصوفية في الشعر الجزائري
المعاصر فكرة مغادرة الذات عبر النشوة الصوفية

السالكين الذين " إذا شربوا بكأس محبته وقعوا في بحار أنسه، وتلذذوا بروح مناجاته، وإذا عرفوه حق معرفته ولهوا في عظمتهم"¹⁵.

يَعتمد الشَّعرُ الثيوصوفي في أدنى مخاضه على الجمع بين الثنائيات الضدية والمواقف المتناقضة حيث يَصْدُرُ عن توليفها صياغةً فنيّةً خارقةً " كل شيء فيها يبدو رمزا، وكل شيء فيها هو ذاته شيء آخر"¹⁶ يتقلب رافضا التّغولب، ويتلون رافضا كل الألوان، فهو بالأحرى تفاعل دينامي مُستمر، حيث تغدو الكتابة الشّعريّة الثيوصوفية معه وهما وحلما في حالة اليقظة وذلك نظيرَ إحداث نشاز دلالي في هزاهز معانيها، مما يجعل البؤر المعلمية للشّعر الثيوصوفي تُصاب بالتشويش المُلَزّ بنقطة انعطاف شفافة تعمل على تغييب سرّ اهتداء المتلقين، فتجعلهم حيارى وشديدي اللّهات، وهذا بفعل اتّحاد الشّحنات الشّعريّة والشّعلة الرّوحية الصوفية، وهو اتّحاد توخى من خلاله الشّعراء الثيوصوفيون المعاصرون التّعبير " عمّا يجول في خلجاتهم ويضطرب في حنايا قلوبهم وإلى تصوير ما يدينون به من الآراء والمعتقدات"¹⁷.

يقول الشّاعر محمد علي سعيد:

تَراءى / اِضْمَحَلَّ

عَلَى قِصَصٍ فِي الخُطُوطِ...

لَمْ أَرِ الوَاقِعِينَ

وَلَكِنَّهَا ذِي التَّلَالِ التي اِنْبَسَطَتْ

سَجَدَ الخَمَرُ فِيهَا / اِسْتَقَاقَ الذي

لَمْ يَجِدْ نَشْوَةً فِي الكَلَامِ

فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُ

فِي نَثَارِ الصَّخْبِ

اتّخذ الثيوصوفيا من المصالحة بين الأضداد أفقا لرؤية مُكاشفة تستبصر الحجاب الإلهي عند التّجلي، فالترائي بعين السّكر اضمحلال لوجودٍ عديمي، وعليه تكون سجدة الخمر (فرط المناجاة ومسلّك

الحوّل) مقابلا موضوعيا للصحو (الذي لم يجد نشوة في الكلام فقطّع أيديه) بمعنى حصول المراد و" هو رؤية البقاء في فناء الصفة وهذا هو عين الكشف"¹⁸.

استطاع الشّعرُ الجزائري المعاصر بفضل طاقته المتجددة وعالمه الشّفاف إدراك النّشوات المتعددة لنخب الخمر الإلهية ف"من شرب كأسا من محبته، وذاق نعيما من مناجاة الجليل (...) طار بالله طربا"¹⁹، وليس أدلّ على ذلك من قول الشّاعر أحمد عبد الكريم:

يَغْمِسُ فِي طَاسَةِ الخَمَرِ اِحْدَى مَدَائِحِهِ

وَيَشْرَبُ اُنْخَابَهَا كَالْحِجَابِ / المِدَادِ

إنّ ارتباطَ الحجاب بمائية المداد جعل دلالاته تنساب تبعا لمنازل النّشوة ومقامات النّخب، كما أنّ مُكاشفةَ حجاب الغيب في القراءة الثيوصوفية حَوَّلَ " يقين المعاينة أو المشاهدة إلى يقين ميتافيزيقي مطلق"²⁰.

2.3 المرأة:

تتخذ المرأة في التّجربة الثيوصوفية صورا متعددةً تكتسي طابعا شفافا مُتعاليا عن التّجسيد والرّسم بالألوان!، كما تُعدُّ صورة المرأة في الشّعر الجزائري المعاصر من أبرز صور التّجلي الإلهي نظيرَ ارتباطها بالحبّ المُتفاني في عشق القضايا المقدّسة، لذا فإنّ الحبّ في التّجربة الثيوصوفية مدعاةً لحضور الذات الإلهية.

شقّ الشّاعر أحمد عبد الكريم طريقا إلى عالمٍ ثيوصوفي يمتح منه حنينا دياليكتيكيا ملؤه " الرغبة في الإله المتجلي في المخلوق ... ويمثل هذا الضرب من الحب الحوار الأبدي المعبر عن اقتران القدسي والإنساني"²¹:

غَدَاةٌ يَرَاوَحُ فِي تَغْتَعَاتِ التّجَلِّي

فَتَحْنُ لَنَا فِي الْمَسَاءِ طُقُوسُ

(...)

أُحِبُّكَ أِهْ..

فَدَثِّرُ حَيْنِي بِأُغْنِيَةِ كَيِّ أَبُوحَ بَانًا غَرِيبَانِ

مِنْ أَوَّلِ الدَّرْبِ حَتَّى تَحُومَ التَّخُومُ

أَجْرَنِي فَإِنِّي إِلْتَجَأْتُ إِلَيْكَ لَعَلِّي أَقْبَسُ مِنْ شَفَتَيْكَ

إِشْتَعَالِي

فَهَذِهِ الْمَدِينَةُ تَلْهَفُ خَلْفَ خُطَايَ

(...)

أُحِبُّكَ أَنْتِ الْمَرَايَا وَأَنْتِ إِغْتَرَابِي

(...)

أُحِبُّكَ..

أَنْتِ التُّبُوءَةُ.. أَنْتِ إِخْضَارُ الْيَبَابِ

تَلَاوِينُ مَرْحَلَتِي

وَقِيُودِي (محمد علي سعيد، 2006)

انطلاقاً من الروحانية الشيوصوفية يغدو الفصل

كمال الوصل، والفراق قمة الحلول المتجلي في

قول الشاعر أحمد عبد الكريم:

رَحَلْتُ وَلَمْ تَمْنَحْنِي

قَلِيلاً مِنَ الْإِنْتِظَارِ لِأَشْهَدَ طُقُوسَ

الْكُسُوفِ الْأَخِيرِ

لَعَلِّي أَمْحُو عَلَى سَاعِدَيْكَ بُكَائِي الطَّوِيلَ،

وَأَغْفُو عَلَى صَدْرِكَ الْمُتَعَالِي إِلَى سَاعَةٍ لَا تَحِينُ

تتغرب لغة الشعر في العالم الشيوصوفي حتى ما يبقى بينها وبين ألفة التعبير سوى خيط رقيق شفاف يباشر الشاعر من خلاله الحقيقة العرفانية كما اشتهاها.

تغيب الفواصل في الشعر الشيوصوفي فتتصغر المسافات والأزمنة وهذا ما جعل طقس الكسوف الأخير مشهداً مرجاً إلى ساعة لا تحين؟، يُغَيِّبُهَا بكاء النص الممحو من تلافيف الذاكرة التي أضحت دلالتها الأنثوية رحلة معراجية تغفو فيها روح الشاعر المستعلية بدلالة الحرف- على- على صدر الحبيبة المتعالي، فتغدو الروح والصدر وجهين لمسمى واحد أو على حد قول كاسيرر "إِنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنَ الْكُلِّ هُوَ الْكُلُّ عَيْنُهُ"²³.

تتعدد صورة المرأة في الشعر الجزائري المعاصر ومع ذلك تظل تُلَازِمُ دلالة التجلي / وحدة الوجود والشهود / الفناء في حياة أبدية تتحرر الروح فيها من دوغمائية الجسد / التواميس الوضعية / سلطوية الليل الذي يحاصر حراكها ضمن مجاهيله الغامضة الدفينة في قول الشاعر محمد علي سعيد: يُنبِئُ النَّصَّ الشَّعْرِيَّ عَنْ تَعَلُّقِ الْمَرْأَةِ بِحَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ، يَتَخَلَّصُ الْمَوْتُ فِيهَا مِنْ دَلَالَتِهِ التَّهَائِيَةِ الْمُقْنَنَةِ

أدرك الشاعر أَنَّ الأنثى سرُّ المكاشفة بينه وبين الحق تعالي فهرع إليها في فترة مقدسة - المساء- تقيض بدلالات التجلي وطقوس الوجدان المناوئة لغربة أنطولوجية لا نهاية لقرارها (من أول الدرب حتى تخوم التخوم)؛ فتلاشي الزمن الصرمدي للغربة رهين باداء شيوصوفي تنعكس في مراهة الأنثى المغربة لذات الشاعر والموصولة بحنينه " فحنين الرجل إلى المرأة إنما هو حنين الكل إلى جزئه، والشيء إلى نفسه (...) هو حنين الشيء إلى وطنه"²².

لعل هذا الترياق الشيوصوفي هو الذي جعل لغة الشاعر محمد علي سعيد تستصرخ، تتأوه من فراق تشدُّه دينامية الحنين وتبشير المرحلة الجديدة:

أَنَا فِي عَذَابِكَ

غُودِي

سَيَبْقَى الْحَيْنُ

عَلَى كَيْفٍ

مِنْ وَغُودِي

وَأُرْسِلُ شِعْرِي

يَا إِمْرَأَةً تَتَكَلَّلُ بِالمَوْتِ،

إِنَّ العُيُونَ الجَرِيئَةَ يَسْجُنُهَا اللَّيْلُ، ... (2006)

وَذَرُّوا رَمَادَهُ عَلَى مِصَنَّاتِ الجِهَاتِ!؟..

(عبد الحميد شكيل، 2008)

ليعانق الانزياح الجريء بوصفه مشروعاً نهضوياً يُناهض سجن الليل؛ حيث يمكن القول أن البعد الثيوصوفي في هذا النص الشعري تمحور ضمن طرفي ثنائية ضدية يُمثل الليل فيها دهاليز السياسة، فيما تستأثر دلالة الأنثى (المرأة – العيون) بـ "القوة السياسية التي ستعيد للإنسان كرامته"²⁴.

3.3 الحلاج (858-922م):

طالما زلزل الحلاج السلطة مُشكلاً مصدر قلق سياسي قبل أن يكون ديني، فأقصى ما تخشاه السلطة تفاقم المُتَشيعين للأصوات الدينية التَّبيهة المتحررة من دوغمائية الفكر ومن سجن اللغة، كذلك يتجسّم الخطر إذا لم تجد هذه الشخصيات المنطلقة من يعي رؤاها حق الوعي، وهذا ما حصل مع الحلاج حيث راح ضحية استعماله للرمز بشكل مُثير للانتباه وباعث لسلطوية الدلالة الأحادية الظاهرية غير المقصودة، فأدى ذلك إلى إراقة دمه. ومن المحاولات الجادة التي تمثّلت رمز الحلاج وأسقطته على الواقع المرير للشعراء المعاصرين قول عبد الحميد شكيل:

في جَوْفَةِ المَوْتِ،

وَالسُّفْهَاءِ،

مَاذَا تَنْتَظِرُ – أَيُّهَا العَزِيزُ-

مِنْ حَفْدَةِ الذِّينِ أَرَأَقُوا دَمَ الحَلَّاجِ،

ذَلِكُمْ الرَّأْيُ الكَبِيرُ،

لَقَدْ مَرَّقُوا جَسَدَهُ،

وَأَحْرَقُوا وَرْدَ الذَّاكِرَةِ – تَأْصِيلاً لِسَيَادَتِهِمْ، القَذَرَةُ-

قارع الحلاج أجراس اللغة فتكشّفت له رؤيا علوية / ثيوصوفية صدع بها في زمن يستلزم الصمت فلم تكن السلطة يومها تسمح بالانفتاح الفكري الذي يُنَوِّرُ العقول، والشاعر عبد الحميد شكيل يُحذّر من تكرار مأساة الحلاج (ماذا تنتظر – أيُّها العزيز- من حفدة الذين أراقوا دم الحلاج؟)، فهو استفهام تعجبي إنكاري يُلحّ على الشاعر "الذي يريد السلامة لنفسه من شر الغوغاء، لا يبوّح بالحقائق التي يدركها بمشاعره وروحه، حتى يمنحه الله السلامة وبقية شرّ أن يباح دمه بين الناس، والإشارة تفق عن العبارة"²⁵.

يُوْعِزُ الأمير عبد القادر إلى ضرورة تكتم الشاعر الثيوصوفي عمّا تكشف له من معارف ربّانية، وألاً يُدّيعها "لغير أهلها (...)" ويخبرنا في المواقف بأنّ الله تعالى تفضل عليه بمعرفة السرّ الإلهي، ولكن بعد أن أخذه عن نفسه، وقرّبه إليه حتى ' قيل لي مثل قوله الحلاج، غير أنّ الحلاج قالها، وأنا قلت لي، ولا أقولها (...)' ولولا لجام الشرع لقلت ما لم يُقَلْ"²⁶.

4. خاتمة:

توصّل البحث بعد الدّراسة والتّحليل إلى جملة نتائج نوجزها عن كثب:

- لا يخفى على المستقرئ للشعر الجزائري المعاصر مدى التّناسب الطردي بين التجربة الثيوصوفية وإستراتيجية التّأويل، حيث عملت هذه الأخيرة على إقبار المعنى الظاهري وإغفال نبط دلّاته، وهذا ما جعل النصّ الشعري الجزائري نصاً دينامياً

حدث للحلاج وبعض الشعراء الجزائريين- الذين أفرجوا عن العلبة السوداء للأزمة التسعينية في ظلّ نقشي الفكر الدوغمائي.

● وهذا ما دفع التجربة الشيوصوفية الجزائرية إلى تبني سياسة العزلة اللغوية المفروضة في بعض التَمَوُّضَاتِ الشعرية والإرادية في تَمَوُّضَاتٍ أخرى.

● في الأخير يقترح البحث موضوعا ديناميا للتطّارح والتحليل ألا وهو " التجربة الشيوصوفية / الباروكية في الشعر الجزائري المعاصر.

مرجاً على الدّوام إلى حين لا تحين، فهو لا يقبل التّجاوز ولا يبتذل ولا يتقادم.

● شكلت التجربة الشيوصوفية في الشعر الجزائري المعاصر أنموذجا انسيايا / حربائيا فهو لا يستكنّ إلى دلالة قارة، فإذا أخذنا على سبيل المثال رمز الخمرة نجده يُغيّر مخاضه الدلالي باختلاف التّموضع الشعري الذي حلّ به (الكشف عن النخب المتعددة لنشوة الخمر).

● أما عن رمزية المرأة فقد جعلت منه التجربة الشيوصوفية الجزائرية المعاصرة لغة ثانية تتجاوز لغة الجسد أو لغة العين إلى مكاشفة الذات الإلهية والاهتداء إلى ملكوت الكون المثالي.

● تمكّن الشعر الشيوصوفي الجزائري المعاصر من إحداث نقلة نوعية أكسو ثيوصوفية تجلّت في المصالحة بيت الأضداد، وتقريب مسافات البين فبدا الفصل قمة الوصل والفراق قمة الحلول.

● توخى الشعراء الشيوصوفيون الجزائريون المعاصرون التّعبير عن هواجسهم، والإفلاج عن مكبوتاتهم ضمن أسلوب مُلغَز يندّد المباشرة والصراحة، بل ويجعل من الغموض والتّشفير والتّرميز مرتع الأسلوب الشعري، وعليه يمكن القول أن الشعراء الجزائريين اتّخذوا من التّعبيرات الشيوصوفية لغةً ثانيةً تقف حائلا في وجه كلّ من سولت له نفسه اغتصاب حرمة المقدّسات (الإيحاء العالمي عبر أريج الفن)، ويظهر ذلك في الأداء الشيوصوفي الذي كفل مُراد الشعراء الجزائريين وعزّهم في الخطاب مخافة أن يُباح دمهم -كما

5- الإحالات:

- ²⁰ عبد العزيز حمودة: المراسم المقرة نحو نظرية نقدية عربية، مطابع الوطن، ط ١، الكويت، 2001، ص 384
- ²¹ عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للنشر، ط 1، بيروت، لبنان، 1978، ص 139.
- ²² عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، ص 152.
- ²³ عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، ص 28.
- ²⁴ وضحي يونس: القضايا النقدية في النثر الصوفي، ص 192.
- ²⁵ علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، ص 16.
- ²⁶ بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، ص 84.
- 6. قائمة المصادر والمراجع:**
- * الدواوين الشعرية:**
- 1- أحمد عبد الكريم: موعظة الجندب، دار أسامة للطبع والنشر، ط 1، الجزائر، 2009.
- 2- محمد علي سعيد: روح المقام أو سقط المنافي وهبوب الجهات، دار الخلدونية، ط ١، الجزائر، 2006.
- 3- محمد علي سعيد: جيوب الرذاذ، منشورات أرتيستيك، ط ١، الجزائر، 2005.
- 4- عبد الحميد شكيل: شوق الينابيع إلى إنائها، نصوص إبداعية، موفم للنشر، ط ١، الجزائر، 2008.
- * المراجع:**
- 1- أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري: كشف المحجوب، ج 2، تح: إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط ١، القاهرة، مصر، 2007.
- ¹ مريم بنت ماجد بن أديب عنتابي: الثيوصوفيا (دراسة لقضية الألوهية في الفكر الثيوصوفي الحديث)، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط 1، السعودية، 2015، ص 25.
- ² المرجع نفسه، ص 32.
- ³ الموسوعة العربية العالمية، ج 8، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1999، ص 88.
- ⁴ مريم بنت ماجد بن أديب عنتابي: الثيوصوفيا، ص 28.
- ⁵ المرجع نفسه، ص 30.
- ⁶ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁷ طه عبد الباقي سرور: الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، مؤسسة هذاوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014، ص 159.
- ⁸ مريم بنت ماجد بن أديب عنتابي: الثيوصوفيا، ص 32/31.
- ⁹ محمد غربال: الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، مصر، 1965، ص 576.
- ¹⁰ عثمان حشلاف: الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر (فترة الاستقلال)، منشورات التبيين/ الجاحظية، ط ١، الجزائر، 2000، ص 46.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص 97.
- ¹² أمين يوسف عودة: تجليات الشعر الصوفي — قراءة في الأحوال والمقامات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2001، ص 337.
- ¹³ علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، ط ١، القاهرة، مصر، 1984، ص 13.
- ¹⁴ بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر الجزائري، المجاهد الصوفي، دار النشر الإلكتروني، ط ١، مصر، د-ت، ص 78.
- ¹⁵ نقلا عن، وضحي يونس: القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط ١، دمشق، سوريا، 2006، ص 47/46.
- ¹⁶ محمد زباني: فلسفة اللامعقول في الخطاب الصوفي (ابن عربي نموذجاً)، إصدارات إي-كب، ط ١، لندن، 2017، ص 73.
- ¹⁷ محمد إبراهيم الجيوشي: بين التصوف والآداب، المكتبة الأنجلو مصرية، ط ١، القاهرة، مصر، د-ت، ص 47.
- ¹⁸ أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري: كشف المحجوب، ج 2، تح: إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط ١، القاهرة، مصر، 2007، ص 416.
- ¹⁹ أبو نصر السراج الطوسي: اللُّمَع، تح: عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، دار المثنى ببغداد، 1960، ص 87.

- 9- مريم بنت ماجد بن أديب عنتابي : الشيوصوفيا (دراسة لقضية الألوهية في الفكر الشيوصوفي الحديث)، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط1، السعودية، 2015.
- 10- عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، مطابع الوطن، ط؟، الكويت، 2001.
- 11- عثمان حشلاف: الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر (فترة الاستقلال)، منشورات التبيين/ الجاحظية، ط؟ الجزائر، 2000.
- 12- عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1978.
- 13- علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، ط؟، القاهرة، مصر، 1984.
- *الموسوعات:**
- 1/ الموسوعة العربية العالمية، ج8، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1999.
- 2/ غربال: الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، مصر، 1965.
- 2- أبو نصر السراج الطوسي: اللُّمَع، تح: عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، دار المثنى ببغداد، 1960.
- 3- أمين يوسف عودة: تجليات الشعر الصوفي — قراءة في الأحوال والمقامات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2001.
- 4- بركات محمد مراد: الأمير عبد القادر الجزائري، المجاهد الصوفي، دار النشر الإلكتروني، مصر، د-ت.
- 5- وضييونس: القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط؟، دمشق، سوريا، 2006.
- 6- طه عبد الباقي سرور: الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، مؤسسة هنذاوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014.
- 7- محمد إبراهيم الجيوشي: بين التصوف والآداب، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، د-ت.
- 8- محمد زباني: فلسفة اللامعقول في الخطاب الصوفي (ابن عربي نموذجا)، إصدارات إي-كب، ط؟، لندن، 2017.